القرآن الكريم بصفته معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم

د. أبو بكر رفيق*

لقد جرت سنة الله سبحانه وتعالى أنه عند ما أرسل رسولا أو نبيا إلى قوم أعطاه بعض المعجزات الخوارق للعادات التي تشذ عن النواميس الطبيعية وذلك لتأييد رسله وتصديق دعواهم بالنبوة لأن من طبيعة الإنسان أن لا يخضع لغيره ولا يطيعه حتى يقتنع أنه يملك ميزات وخصائص لا يملكها هو أو ما لا يستطيع أن يبلغها. فإما أن يعطوا هذه الآيات والمعجزات بداية أي عندما يختاره الله تعالى مرسلا إلى قومه، كما حدث في شأن سيدنا موسى بأن أعطاه الله عصا تتحول إلى ثعبان مبين ويدا عندما يضمها إلى جناحه تخرج بيضاء ناصعا كالمصباح . يقول سبحانه وتعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا . وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .يَامُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ. إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ . فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ. إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ.﴾[1]

وأحيانا تعطى تلك الخوارق بعدما يكذبه قومه أو يطالبه بمجيئه بالآيات كما كان الحال مع أكثر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وإلى ذلك يشير سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ . وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ. قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ. قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ. وَمَا كَانَ لَنَآ أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ

---

* نائب مدير الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ.

وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ. وَمَالَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ. ﴾[2]

وما يحكي الله سحانه وتعالى ما قال لهود قومه: ﴿قَالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[3] قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِئَايَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّدِقِينَ. قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. ﴾[4]

فعرف أن الآيات والخوارق تكون أساسا على طائفتين:

الطائفة الأولى: ما كان يعطي الله لرسله عندما يصطفيهم أنبياء ومن غير أن يطالبهم قومهم آيات وبينات.

والطائفـــة الثانية: ما يعطيهم الله بعد مطالبته قومهم إياه كتصديق لدعواهم بالنبوة أو تظهر عفوية أمام متبعيه من غير أن يطلبوها.

أمـــا الطائفة الأولى فتكون من قبيل ما استحكم من زمانهم وغلب على خاصتهم ونبغ القوم فـــيهم وبلغوا إلى ذروته وذلك لتكون معجزة الرسل الذي أرسل إليهم متحدية لهم وأعجب الأمور في أنظارهم مع توفر جميع دواعي المعارضة لديهم ونبوغهم في الأمر نفسه.

كمـــا أن ســـيدنا موسى عليه السلام كان قد بعث إلى قوم نبغوا في السحر وبلغوا كماله فجاءهم بمعجـــزة العصا التي كانت تتحول إلى ثعبان وتلقف ما كانت السحرة يأفكون من عصيهم وحبالهم حيات.

وكمـــا كـــان سيدنا عيسى المسيح عليه السلام أرسل إلى قوم نبغوا في الطب واشتهروا في الآفاق وأعطاه الله تعالى معجزة إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنِّـــي أَخْلُـــقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ ﴾[5]

وذلك حتى يكون التحدي من جنس ما نبغ فيه قوم وجاء إليهم بما تجاوز علمهم وزاد عليه بإحياء الموتى ومعجزة زائدة على ما نبغوا فيه وهكذا الحال لسيدنا محمد ﷺ فعندما جاء إلى قـــومه بالقرآن الكريم كان ذلك من جنس ما نبغوا فيه. إذ كان العرب قد اشتهروا بالبلاغة والفصاحة وأساليب الكلام الأخرى شعرا ونثرا ورجزا وسجعا وكان لهم القصيد العجيب ، والرجز الفاخر، والخطب الزاخر وكان فيهم أمراء البيان وأعلام التبيان وأرباب البلاغة وأئمة الفصـــاحة الـــذين لم يـــبلغ مبلغهم في ذلك قوم من الأقوام قبلهم. وكان لأصحاب الشعر وأربـــاب الكلام فضل كبير ومكانة عظيمة في القبائل العربية فكانت القصيدة أو بيت شعر

تنتشر في أنحاء الجزيرة العربية أسرع من الريح المرسلة أو الرمح المطلقة. وذلك لتأثير الشعر الكبير لديهم. لأنه كان يخلد مآثرهم ويسجل مناقبهم وربما خفضت قصيدة واحدة أو أبيات عديدة منزلة قبيلة الحضيض الأسفل لأن شاعرا أقذع في هجائها – كما رفعت منزلتها لأن شاعرا قد أجاد في تمجيد محاسنها.

وما كان القرآن إلا كلاما – مركبا من الأحرف والكلمات من جنس ما يركبون بها كلامهم- ولكن في أعلى درجة من البيان وأسمى منزلة من البلاغة فتحدى بذلك أولئك العرب من فرسان الكلام وخطباء البيان وشعراء نابغين وبلغاء مفوهين وأصحاب الجدل الخصمين. ولكن قريشا أدركت من أول يوم أنهم غير قادرين على مواجهته و محاكاته وأنه بالغ في البيان درجة ما لم يبلغها أحد من فصحائهم. وأما الطائفة الثانية من المعجزة فليس من الضروري أن تكون من قبيل ما نبغ فيه قوم هؤلاء المرسلين. لأن الغرض وراءها ليس التحدي بل إثبات دعوى النبوة والتنبيه على أن الذي يرفضون دعوته على أساس أنه بشر مثلهم هو مرسل من الله. ومن هنا أيده الله ببعض المعجزات لإقناعهم على أنه ليس بكاذب. فلم تكن ناقة صالح، وطيران سليمان على عرشه مسيرة شهر صباحا أو مساء، وفهمه منطق الطير، وفلق البحر لموسى وأصحابه بضربة عصاه، وإنزال المن والسلوى لبني إسرائيل وإخبار المسيح عليه السلام بما يدخره الناس في بيوتهم وشق القمر وشهادة الشجر ونبع المياه من بين أصابع نبينا محمد ﷺ وخوارق كثيرة من هذا القبيل لم يكن من قبيل ما قد نبغ فيه القوم و لم يكن الغرض بها التحدي.

ثم أن المعجزة على قسمين (أ) حسية و (ب) عقلية.

فقد كانت معجزات جميع الأنبياء قبل محمد ﷺ حسية بلا استثناء . وأما معجزة محمد ﷺ فكانت تشمل القسمين أي الحسية منها والعقلية . ولكن أكبر معجزاته التي تحدى الله بها الإنس والجن فهي عقلية بحته. ألا وهي القرآن الكريم.

ذكر السيوطي:

" و أكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذووا البصائر". [6]

نعم ،كان القرآن هو معجزة الرسول الكبرى و لم يكن هو معجزته الوحيدة كما يظن بعض الباحثين بل كانت له معجزات ضخمة غير القرآن- التي ظهرت عنه ﷺ في مواقف وماسبات بمشيئة الله تعالى- من مثل إحياء الموتى وحنين الجذع وكلام الحيوان ومشي الشجر ونطق

الحجر وشق القمر ونبوع الماء من الأصابع وشبع العدد الكبير من الطعام القليل وما إلى ذلك ما لا يحصى عددها.

والفرق بين المعجزة الحسية والمعجزة العقلية أن الأولى محدودة في حدود الزمان والمكان والكم والكيف، والثانية لا تحد بهذه الحدود. ومن هنا نلاحظ أن معجزات الأنبياء السابقين زالت أثرها بانقراض زمانهم وكانت محدودة في حدود حياتهم أو في مواقف معينه، كعصا موسى لم تبق لها ذلك الأثر الذي كان لها بأيدي سيدنا موسى عليه السلام ولو بقيت تلك العصا زمانا بعده. وكذلك إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص كل ذلك أصبح جزءا من تاريخ حياة الأنبياء. ولكن القرآن الذي هو من قبيل المعجزة العقلية ما زال ولن يزال معجزة شامخة في تحديه ومتلألا كنور الشمس بجميع مزاياه باقية بقاء الدنيا وما فيها. ثم إن القرآن بصفته معجزة عقلية لا يقع من الناس موقعا واحدا. وذلك لاختلاف مداركهم وتباين مستوى تفكيرهم. فمنهم من يتدبر في آياته فتفتح به أبواب قلبه فيملأ نورا وهداية ومنهم من لا يأخذ به بالا مدة قليلة أو طويلة فلا يهتدى إلى مواقع الحق أبدا أو إلا بعد زمان. ومن هنا يترك له المجال لمواجهة تلك المعجزة وتترك له الفرصة للتفكير فيه فلا يحقه العذاب على رفضه في هذه الحياة الدنيا كما كان الأمر مع أقوام الأنبياء السابقين عند رفض آياتهم ومعجزاتهم بأن أهلكوا بأنواع من العذاب.

وإليكم بعض آيات القرآن ما تقص علينا عن موقف قوم نوح وعاد وثمود وقوم صالح من أنبياء ورفض آياتهم وعن مصيرهم.

﴿ وَاتْلُ عَلَيهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ . يٰقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِئَايٰتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ. ﴾ [7]

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنٰهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنٰهُمْ خَلٰئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِئَايٰتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عٰقِبَةُ الْمُنذَرِينَ. ﴾ [8]

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ. قَالُوا يٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنٰهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ... . وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صٰلِحًا قَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ. هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ... وَيٰقَوْمِ هٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ

ءَايَـةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلٰثَةَ أَيَّامٍ ذٰلِكَ وَعدٌ غَيرُ مَكْذُوبٍ﴾[9]

فاقتداء بقدوة الأقوام الماضية كان العرب عندما أعلن الرسول ﷺ بنبوته في أول الأمر ودعاهم إي الإيمان – قد أبدوا انفعالهم بعد مطالبة الرسول أن يأتيهم بمعجزات مادية حسية.

ويحكي القرآن ذلك عنهم:

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤمِنَ لكَ حتّٰى تفجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهٰرَ خِلٰلَهَا تَفْجِيرًا. أَوَ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَينَا كِسَفًا أو تَأْتِيَ بِاللهِ وَالمَلٰئِكَةِ قَبِيلًا . أَوَ يَكونَ لَكَ بَيتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقٰى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّٰى تُنَزِّلَ عَلَينَا كِتٰبًا نَقرَؤُه﴾.[10]

ولكن الله صرح لهم أنهم إن أرادوا معجزة في الحقيقة للإيمان بالرسول ﷺ فيكفي لهم القرآن بصفته أكبر معجزة وأعلى شأن مما يطلبون.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِن رَّبِّهِ. قُلْ إِنَّمَا الأَيٰتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِيْن. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتٰبَ يُتلٰى عَلَيهِمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَرَحمَةً وذِكْرٰى لِقَوْمٍ يُؤمِنُونَ﴾[11]

لقد كان إنزال القرآن رحمة – رحمة للكافرين والمؤمنين جميعا – رحمة للكافرين لأنه بسبب كونه معجزة عقلية لم يؤد إلى إهلاك المنكرين والكافرين بل يترك لهم مجالا للتدبر فيه والتفكر مرة بعد مرة حتى يفتح أبواب قلوبهم المغلقة ويهديهم إلي قبول الحق، ورحمة للمؤمنين لأنه يضمن لهم الفلاح في الدنيا والنجاة في الآخرة.

لقد عقد الباقلاني فصلا في مطلع كتابه المعروف بـ " إعجاز القرآن" وعنون له " فصل في أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن" ذكر فيه : " الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة القرآن، أن نبوة نبينا عليه الصلوات والسلام بنيت على هذه المعجزة، وإن كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة. إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة، وأحوال خاصة وعلى أشخاص خاصة، ونقل بعضها نقلا متواترا يقع به العلم وجودا وبعضها مما نقل نقلا خاصا، إلا أنه حكى بمشهد من الجمع العظيم وأنهم شاهدوه فحل محل المعنى الأول، وإن لم يتواتر أصل النقل فيه، وبعضها مما نقل من جهة الآحاد، كان وقوعه بين يدي الآحاد.

فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة، عمت الثقلين، وبقيت بقاء العصرين، ولزوم الحجة بها أول وقت ورودها إي يوم القيامة على حد واحد، وإن كان قد يعلم بعجز أهلى العصر الأول عن الإتيان بمثله وجه دلالته، فينبغي ذلك عن نظر مجدد في عجز أول العصر عن مثله، وكذلك قد يغنى عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله، عن النظر في حال أهل العصر الأول"[12]

ومما يدلنا على أن الله تبارك وتعالى جعل القرآن أكبر دليل على نبوة محمد ﷺ آيات كثيرة ويذكر منها خاصة قوله تعالى:

﴿الر . كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[13]

فأخبر أن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن ليهتدي به الناس ، ما يستلزم كونه حجة ، ومعنى كونه حجة أنه معجزة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾[14]

فلو لم يكن سماعه حجة لما طلب الله تعالى من رسوله أن يسمع الكافرين كلام الله ، ولا يكون حجة إلا أن يكون معجزة .

ولقد أشار الرسول ﷺ في حديث له إلى أن الله تعالى أعطاه القرآن إياه معجزة له فيقول:

" ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة" [15]

وذكر السوطي معقبا على هذا الحديث :

"قيل إن معناه أن معجزات الأنبياء أنقرضت بانقراض إعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه العادة في أسلوبه وبلاغته وأخباره بالمغيبات فلا يمر عصر من الإعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه". [16]

ولما كان القرآن من قبيل المعجزة العقلية بخلاف معجزات الأنبياء السابقين دعا الناس إلى إعمال الفكر لمعرفة قدرة الله تعالى وتوحيده والإيمان به إيمانا ينبعث عنه بعد أن يقتنع قلبه عقب التدبر في الأنفس والآفاق، لا إيمان المقلدين بدون علم ومعرفة فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.[17]

قال قتعالى: ﴿ وَفِي الأَرْضِ ءَايَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. [18]

وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [19]

وأضف إلى هذا أن الآيات الخمس الأول التي بدئ بها الوحي إلى الرسول الكريم كانت تدعو إلى القراءة . إلى القراءة بإسم الرب الخالق وتبين فضل العلم وتذكر أن العلم من أكبر نعماء الله على خلقه فيقول:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.[20]

وقد تضمنت هذه الآي كلمة أقرا مرتين وثلاث صيغ مشتقة من كلمة العلم وكلمة القم مرة واحدة. إشعارا بأن هذا القرآن قد أنزل بشعار جديد، ألا وهو شعار العلم والإيمان بالرب الذي خلق. أنزله إلى الناس كافة . ليخرجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان. فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ الر. كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾.[21]

ومن هنا ذهب العلماء الى أن سبب كون القرآن معجزة عقلية قائمة على التبصر والتأمل والتفكر والتدبر داعية إلى النظر في الأنفس والآفاق للوصول إلى معرفة رب الكون وخالق الأرض والسماوات والرجوع إلى الإله الواحد الأحد الصمد فرط ذكاء من أنزل عليهم وقوة عارضتهم.

كيف تلقّى العرب القرآن المعجز؟

عندما جاء محمد بن عبد الله بكتاب الله العظيم الذي أنزل إليه بلسان عربي مبين وتلا على قومه مما أنزل إليه تنزيل العزيز الرحيم وبشر المؤمنين بمغفرة وأجر كريم وأنذر الكافرين بعذاب أليم. فلما سمعه صناديد قريش وكان فيهم أمراء الشعر وفصحاء الدهر و أرباب البلاغة وملوك البيان "ولكنهم إذا استمعوا إلى القرآن تحيرت (أفهامهم) واضطربت أحوالهم بين قديم ألفوه، وحق في القرآن عرفوه، فهم يحاورون في الحق، ولكن لا يدورون ماذا يدفعون به القرآن الذي يحمله ويدعوا إليه وإلى ما جاء به، إنهم بذوقهم البياني يجدون أنه فوق كل كلام، ولا يمكن أن يجري به لسان من ألسنتهم وأمثالهم، بل لا يمكن أن يأتي بهم محمد من عنده، لأنهم من قبل عرفوا كلامه، وقد رأوه عالياً في جوامع كلمه، ولكن القرآن أعلى من طاقة الإنسان ومن طاقة محمد ذاته".[22]

فزاد قلق قريش ممن لم يستجيبوا للرسول صلى الله عليه وسلم و لم يذعنوا لدعوته، فكان حمقا من زعموا أنهم يستطيعون أن يحاوره فقالوا ﴿ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾[23]

ولكن لم يكن لأمثال أبي سفيان ووليد بن مغيرة وعمرو بن هشام (أبي جهل) وعتبة بن أبي ربيعة أن يسفوا بأنفسهم ذلك الإسفاف لأنهم يعلمون منزلته البلاغية وإعجازه البياني، فلم يتهافتوا إلى إنكار مكانته. فكانوا يستبيحون أذى الرسول وأصحابه ولكن لم يستبيحوا الطعن في مكانة القرآن وبلاغته، ويؤكد ذلك ما أثر عن أخبار مما رواه أصحاب السير والتاريخ.

ذكر السيوطي ما أخرجه الحاكم عن ابن عباس قال : "جاء الوليد بن مغيرة إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : يا عمي إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه لئلا تأتي محمدا لتعرض لما قاله. قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له. قال: وماذا أقول؟ فو الله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا. والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وأنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه. وإنه ليحطّم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر. فلما فكّر قال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره"[24]

وذكر ابن هشام في السيرة النبوية أن العرب طلبوا من الوليد بن مغيرة أن يبدى رأياً في القرآن، حتى يتفق الجميع على رأيه، وينشره بين القادمين من أنحاء البلاد في الموسم، فطلب الوليد بن مغيره منهم أن يقترحوا من عندهم فقالوا:

"نقول كاهن. قال: والله ما هو بكاهن. لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: نقول مجنون. قال ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخاجله ولا وسوسته. قالوا: فنقول شاعر. قال: ما هو بشاعر. لقد عرفنا الشعر كله، رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول ساحر. قال ماهو بساحر. لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما نقول يا أبا عبد الشمس؟ قال: والله إنّ لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق وإن فرعه لخبأ. وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل. وأن اقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر. جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته".[25]

فأنزل الله تعالى من الآية رقم 11 إلى .... 25 من سورة المدثر. وقال تعالى فيه:

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾.[26]

ومما يدل على إعجابهم ببلاغته ما روي: "أن عتبة بن أبي ربيعة ــ وكان سيداً في قومه ــ قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده، يا

معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطي أيما شاء؟ فقالوا: بلى يا أبا الوليد. قم إليه فكلمه:

فقام إليه عتبة حتى جلس إليه فقال: يا ابن أخي : إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة، والكمال في النسب. إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبثت به آلهتهم، وكفرت من مضى من آبائهم. فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل مني بعضها.

فقال رسول الله ﷺ قل يا أبا الوليد قل اسمع: قال يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا. وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا له أموالا حتى نبرأك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع إليه، قال: فقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال: افعل. فقرأ الرسول صلى الله عليه وسلم.

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم

حٰمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. كِتٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايٰتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِى ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عٰمِلُونَ.﴾ [27]

حتى مضى رسول الله ﷺ يقرأ هذه السورة وعتبة ينصت إليه وهو ملقيّا يديه خلف ظهره معتمدا عليهما حتى انتهى الرسول إلى السجدة ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذلك.

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة.

يا معشر قريش: أطيعوني واجعلوها به، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه. فوالله ليكونن لقوله الذي سمعته فيه نبأ. فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزكم وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: قد سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم.[28]

ولكن الذين كتبت لهم نعمة الايمان كانت ترق قلوبهم بمجرد سماعهم للقرآن وما تلبث إلا أن تتقدم إلى قبول الحق. وإلى هنا يشير سبحانه وتعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ.﴾ [29]

يذكر ابن برهان الدين الحلبي في سيرته قصة إسلام عمر فيقول:

"وسبب إسلامه على ما حدّث به بعضهم قال: قال لنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامي ـــ اي ابتداؤه والسبب فيه؟ـــ قلنا: نعم. قال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ فبينا أنا في يوم حارّ شديد الحر بالهاجرة في بعض طرق مكة، إذ لقيني رجل من قريش أي وهو نعيم بن عبد الله النحام. .. وكان يخفي إسلامه خوفاً من قومه وأخبرني أن أختي يعني أم جميل ـــ وإسمها فاطمة ... قد صبأت [30] أي أسلمت ... ـــ وكذا زوجها ـــ وهو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ... فرجعت مغضبا وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة يكونان معه ... وقد جمع إلى زوج أختي رجلين ممن أسلم، أي أحدهما خبّاب بن الأرت والآخر لم أفق على أسمه ... فجئت حتى قرعت الباب، فقيل لي: من بالباب؟ قلت: ابن الخطاب وكان القوم جلوساً يقرءون صحيفة معهم فلما سمعوا صوتي تبادروا... فقامت المرأة (يعني أخته) ففتحت لي، فقلت لها: يا عدوة نفسها قد بلغني أنك قد صبوت، وضربتها بشيء كان في يدي. فسال الدم فلما رأت الدم بكت، وقالت: يا ابن الخطاب: ما كنت فاعلا فافعل، فقد أسلمت. فدخلت وجلست على السرير. فنظرت فاذا بالصحيفة في ناحية من البيت فقلت: ما هذا الكتاب؟ أعطنيه... فقالت: لا أعطيكه، لست من أهله أنت. لا تغتسل من الجنابة ولا تتطهر وهذا لا يمسّه الاّ المطهّرون... فلم أزل (أصرّ) حتى أعطتنيه أي بعد أن اغتسل كما في بعض الروايات ـــ فإذا فيها أي الصحيفة ـــ (بسم الله الرحمن الرحيم) قال: فلما مررت على (بسم الله الرحمن الرحيم) ذعرت ورميت الصحيفة من يدي. ثم رجعت إلى نفسي، فأخذتها فإذا فيها ﴿سَبَّحَ لِلهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾...

فكلما مررت باسم من أسمائه ذعرت أي فألقيها ثم ترجع إلىّ نفسي فآخذها حتى بلغت ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ...﴾ إلى قوله تعالى ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. [31]

فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله. فخرج القوم يتبادرونه بالتكبير استبشاراً بما سمعوا منّي وحمدوا الله عز وجل. [32]

ولا يفوتنا أن نذكر هنا قصة الثلاثة من صناديد قريش الذين كان يلذّ لهم استرقاء السمع للقرآن ليرضوا فتنة أنفسهم بهذا الإعجاز البياني: "يروي ابن هشام عن طريق ابن اسحاق عن محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدّث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل (عمرو) بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا لرسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمعوا فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه . فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . فجمعهم الطريق فتلاوموا ، فقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، ولو راكم بعض سفهاءكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثلما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له. حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود. فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا. فلما أصبح ابن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها. فقال الأخنس: وأنا و الذي حلفت به". [33]

هكذا كان أثر القرآن على العرب. ولا شك أنه قد أدهشهم لما سمعوه، وذلك لما لاحظوا فيه من سحر البلاغة والتأثير في النفوس. سواء أكان موقفهم موقف المؤمن المستسلم أم موقف العنيد المستكبر. ولهذا خاف المشركون من أن يستمع إليه الناس فيستميل قلوبهم وصاروا يحاولون أن يصدوهم عنه، ويصفون مرة بأنه شعر ومرة بأنه سحر ومرة بأنه أساطير الأولين ومرة بأنهم يقدرون أن يقولوا مثل هذا، ولكنهم لم يستطيعوا إنكار روعته في النفوس وتغلغله في القلوب، والى ذلك يشير سبحانه وتعالى فيقول: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾[34]

﴿ **وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ** ﴾ [35]

﴿ **لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [36]

﴿ **وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** ﴾ [37]

﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** ﴾[38]

تقـــول الدكتورة بنت الشاطئ: وهذا ينبغي أن نفرق في موقفهم من المعجزة، بين حقـــيقة رأيهم فيها وبين ما انساقوا إليه من دعاوى جدلية من خصومتهم العنيدة للمصطفى صلى الله عليه وسلم، لعلها تصد العرب عن الإيمان برسالته.[39]

ويقول القاضي عبد الجبار:

"على أن ما ظهر من أحوالهم يدل على أن القوم لم يكونوا شاكين في أمر القرآن. لأن اســـتجابة بعضـــهم تدل على نفي الشك. وكذلك إعظام من لم يستجب لحال القرآن وعدولـــه إلى مـــا عدل إليه. وكذلك عدولهم إلى الحرب وغيره. فلا يصح والحال هذه أن يكونوا شاكين في ذلك".[40]

2 ــ القرآن المتحدي

لامراء في أن القرآن كان معجزة للرسول ﷺ بل كان أكبر معجزاته ﷺ والمتحدّى به. أو كان هو معجزة الرسول الوحيدة إن صح هذا تعبير. ولكن الرسول ﷺ لم يتحدّ قومه بالقرآن منذ أول يوم تلقى الرسالة. بل تلا عليهم القرآن وعرض عليهم قبول تعاليمه. بل أيّ من السور المكية الأوائل التي لا تقل عددها عن أربعين سورة على وجه التقريب لم تتضمة شيئاً من التحدي. ولكن العرب الذين سمعوا هذا القرآن عن الرسول ﷺ عرفوا لأول وهلة أنه كلام معجز وشعروا بأن القرآن الذي جاء به محمد بن عبد الله معجز بكل معانيه وبكل ما هو به. معجز بألفاظه ومعانيه، معجز ببلاغته الرائعة وفصاحته الواضحة ، معجز بأسلوبه الفائق ومضمونه الأنيق، معجز بعلو كلماته وعمق معانيه، وبنظمه العجيب ونسقه الغريب، ومعجـــز بكـــل ما تضمنته آياته من عقائد وأحكام وقوانين وتشريعات، وتعليمات سلوكية وتوجـــيهات خلقية وفوق كل هذا وذاك شعروا بأنه معجز بكل ما يتضمن من أفانين القول وضـــروب الكلام. فوجدوا أنفسهم حيارى وأدهشهم أي إدهاش. وعلى الرغم من ذلك لم يســـتعد معظمهم لقبول رسالته وتلبية دعوة الحق بل أخذتهم الأنفة والعزة بآلهتهم ولكنهم لم يجدوا الرفض لدعوته أي منطق ومن هنا بدءوا في البحث عن مبّرر.

ومما يلاحظ أن تحدّي الله العرب ثم الإنس والجن قاطبة بأن يأتوا بمثل القرآن لم يبدأ مـــن فراغ. فقد طالبوا محمدا ﷺ بأن يأتيهم بمعجزات حسية كالتي كانت تأتي بها الأنبياء السابقون . وكذلك كانوا يتهمون الرسول ﷺ لكونه بشراً مثلهم أو بكونه مجنوناً أو شاعراً أو ســـاحراً وما إلى ذلك من الاتهامات العديدة . ولكن القرآن لم يزل يرد دعاويهم الباطلة حـــتى أنهـــم عـــندما بـــدءوا يـــتهمون الرســـول أن القرآن ليس إلا حديثاً مفترىً تقدم الله ســـبحانه وتعالى بالتحدي إليهم ثم إلى الإنس والجن جميعاً في مراحل متعددة لأن يأتوا

بمثل هذا القرآن أو بعشر سور مثله مفتريات أو بسورة مثله حتى يسجل إعجازهم نهائيا ولا يبقى لدى الكفار أي مبرر لرفض الحق إلا العناد والاستكبار.

ونودّ أن نذكر هنا بعض هذه الآيات القرآنية فيما ذكر آنفاً. كقوله تعالى: ﴿ إنّه وفكّر وقدّر . فقتل كيف قدّر . ثمّ قتل كيف قدّر. ثمّ نظر. ثمّ عبس وبسر. ثمّ أدبر واستكبر. فقال إنْ هٰذا إلاّ سحرٌ يؤثر. إنْ هٰذا إلاّ قول البشر ﴾[41]

﴿وقالوا مالِ هٰذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملكٌ فيكون معه نذيرا. أو يلقىٰ إليه كنزٌ أو تكون له جنّةٌ يأكل منها وقال الظّالمون إنْ تتّبعون إلاّ رجلاً مسحورا ﴾

﴿ وإذا تتلىٰ عليهم ءايٰتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هٰذا إنْ هٰذا إلاّ أساطير الأوّلين ﴾[42]

إن هذه السورة وإن كانت مدنية ولكن هذه الآية مما نزلت بمكة منها. فإنها نزلت في نضر بن الحارث كما ذكره الطبري في تفسيره عن ابن جريج وابن جبير قال كان يذهب في تجارته إلى فارس فيمر في طريقه بالعباد – وهم جماعة من العرب الذين تنصروا وسكنوا قرب الحيرة – فيسمعهم وهم يقرءون الإنجيل فلما جاء مكة وسمع القرآن من محمد ﷺ قال: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا.[43]

فلما بلغ تعنتهم إلى أن اجترءوا ليقولوا بأن القرآن حديث مفترى أعلن القرآن بالتحدي البارز. وتفرقت آيات التحدي في السور المكية والمدنية من القرآن وجملتها في ستة أماكن مختلفة وهي كالآتي: (حسب ترتيب المصحف)

1 ــ الآيتان 23 و 24 من سورة البقرة. أي قوله تعالى :

﴿ وإنْ كنتم في ريبٍ ممّا نزّلنا علىٰ عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صٰدقين. فإنْ لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النّار الّتي وقودها النّاس والحجارة أعدّت للكٰفرين ﴾

2ــ الآيتان 49-50 من سورة القصص وهي قوله تعالى:

﴿ قل فأتوا بكتابٍ من عند الله هو أهدىٰ منهما أتّبعه إنْ كنتم صٰدقين. فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنّما يتّبعون أهواءهم ومن أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدىً من الله إنّ الله لا يهدي القوم الظّٰلمين ﴾.

3ـ الآيات 37، 38، 39 من سورة يونس أي ابتداء من قوله تعالى:
﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. إلى قوله تعالى فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

4ـ الآيتان 13 و 14 من سورة هود أي ابتداء من قوله تعالى:
﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ. ﴾

5ـ الآية رقم 88 من سورة الإسراء وهي قوله تعالى:
﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

6ـ الآيتان 33 و 34 من سورة الطور وهما قوله تعالى
﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾

لقد قسم الأستاذ عبد المتعال الصعيدي الأطوار التي نزلت فيها السور المكية حسب المناسبات والأغراض والحوادث التي كان لها أثر ظهر في نزول السورة إلى ثلاث مراحل:

أ ـ فالمرحلة الأولى من ابتداء الوحي إلى الهجرة إلى الحبشة، وهي فترة حوالي سبع سنوات نزلت في هذه المرحلة اثنتان وعشرون سورة كما ذكرها. وهي العلق، والقلم، والمزمل والمدثر، والفاتحة، والمسد، والتكوير، والأعلى، والليل، والفجر، والضحى، والشرح، والعصر، والعاديات، والكوثر، والتكاثر، والماعون، والكافرون، والفيل، والفلق، والناس، والإخلاص.= (22).[44]

ومن ناحية الموضوع تتضمن هذه السور إعلان الدعوة وتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم وتهيئته واستنهاضه للدعوة نفسياً والاستعانة من الله تعالى وطلب الهداية منه. ثم إنذار الكفار بالهلاك وذكر ما يكون للمؤمنين من الأجر الكريم والنعيم العظيم في الجنة وما يكون للكافرين من العذاب الأليم في الآخرة.

ويلاحظ أن المشركين قد اكتفوا من هذه المرحلة بالاستهزاء للمؤمنين والطعن في الدعوة وصاحبها. ولم يطالبوه بآية عليها. لأنهم لم يكونوا يأخذونها في اعتبارهم بل استهانوا بها في أول الأمر.

ب ـ أمّا المرحلة الثانية فكانت من الهجرة إلى الحبشة إلى أن أسرى بالرسول ﷺ وكان الإسراء قبل الهجرة إلى المدينة المنورة بسنة. ونزلت في هذه المرحلة سبع وعشرون سورة وهي

سورة النجم، وعبس، والقدر، والشمس، والبروج والتين، والقريش، والقارعة، والقيامة، والهمزة، والمرسلات، وق، والبلد، والطارق، والقمر، وص، والأعراف، والجن، ويسن، والفرقان، والفاطر، ومريم، وطه، والواقعة، والشعراء، والنمل، والقصص، = (27).

ومن ناحية الموضوع تتضمن هذه السور شرح العقائد والترغيب والترهيب ودفع شبه الكفار والمشركين كما يلاحظ أن المشركين كانوا قد انتقلوا من موقفهم السابق من الدعوة أي من الطعن والاسهزاء إلى موقف جديد وشديد وهو التعنت بطلب الآيات عليها فلم يجابوا إلى ما طلبوا و لم يتحدوا أيضاً بمعجزة القرآن لأنهم لم يصلوا فيه إلى ما يوجب هذا التحدّي. وإن كان قد ذكر في آخر سورة القصص ما يمكن أن يعّد تمهيداً لتحديهم بهذه المعجزة.[45] وهي آخر سور تلك المرحلة نزولاً.

ج ــ أما المرحلة الثالثة فهي تبدأ من واقعة الإسراء إلى هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة. وقد نزلت في المرحلة سبع وثلاثون سورة وهي:

الإسراء، و يونس، وهود، ويوسف، والحجر، والأنعام، والصافات، ولقمان، وسبأ، والزمّر، وغافر، وفصّلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، والذرايات، والغاشية، والكهف، والنحل، ونوح، وإبراهيم، والأنبياء، والمؤمنون، والسجدة، والطور، والملك، والحاقة، والمعارج، والنبأ، والنازعات، والانفطار، والانشقاق، والروم، والعنكبوت، والمطففين. = (37).

ومن ناحية الأغراض والأهداف جاءت هذه السور مناسبة لحال الزمان والمكان الذي نزلت فيه. فكان الإسراء مثلا مبعث تفاؤل لهذه الدعوة ورمزا للهجرة إلى المدينة. فكان له أثره فيما أنذر به المشركين به في هذه السور من عذاب قريب يحل بهم وفيما فيها من قرب إنجاز الوعد بالنصر عليهم وفي الانتقال بالاكتفاء بدفع شبههم إلى تحديهم بمعجزة القرآن لأن ما نزل منه بلغ من الكثرة ما يصلح للتحدي. وقد مضى المشركون في تعنتهم بطلب الآيات والإدعاء بأن القرآن مفترى به. فتحدوا بالآية التي نزلت مناسبة لهم في تفاخرهم بالفصاحة والبلاغة تكون معجزة باقية فيختم بها عهد المعجزات كما ختم بدعوتها عهد الدعوات.[46]

فمرة قالوا إنه أساطير الأولين (5:25) ومرة زعموا أن رجلا أعجميا يوحي به إلى محمد (103:16). فلما بائت هذه المحاولات بالفشل المتتابع قالوا إن القرآن كتاب مفترى وإنهم قادرون على تأليف مثله فأوقعوا أنفسهم في مأزق التحدي.

3. من إيحاءات آيات التحدي

لقد أعجبني ما ذكره د. صلاح عبد الفتاح الخالدي من إيحاءات آيات التحدي في كتابه **البيان في إعجاز القرآن**، ولا يفوتني أن أذكر تلك الإيحاءات باختصار لأهميتها فيقول:

1ـــ تـــوزعت هذه الآيات القرآن المكي والمدني. وفي ذلك استمرار للتحدي فحيثما وجد كافر يطعن في مصدر القرآن فيوجه له التحدي لمعارضته.

2ـــ وردت الآيات كلها في سياق واحد، وهو النقاش والجدال مع الكافرين في أمر النبوة والرسالة ومصدر القرآن.

3ـــ كـــان يسبق آية التحدي إشارة إلى شك الكافرين في القرآن وزعمهم أنه من كلام الرسول ﷺ .

4 ـــ كان يتبع آية التحدي إشارة إلى مصدر القرآن وإثبات أنه كلام الله.

5ـــ كان التحدي في الآيات وسيلة إلى غاية، فليس هدفا بحد ذاته...

6 ـــ إعطـــائهم مهلة يفكرون فيها طويلاً ويستعينون بكل ما يشاءون من البشر من أعوانهم ومساعديهم وشهداءهم ومن يستطيعون دعوتهم والاستعانة بهم.

7 ـــ وكان المقصود بكل من يستطيعون ويريدون هو إثبات عجز الجميع وتسجيله عليهم.

8- تقرر الآيات عجزهم عن المحاولة والمعارضة.

9- جزم القرآن بعجزهم عند دعوتهم للمعارضة مثل (ولن تفعلوا) (لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) وتحقق هذا الجزم فعلا بعد ذلك دليل على مصدر القرآن.

10- يدل قوله تعالى (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) على أن التحدي هو بألفاظ وكلمات القرآن، وليس بمعانية وأخباره وعلومه...

11- كلمـــة (مثله) وردت في كل آيات التحدي فليس المطلوب الإتيان بنفس القرآن لأنه كلام الله ولكن المطلوب الإتيان لمثله والمثلية ليست المثلية في معانيه وأخباره وعلومه وأحكامه ولكنها المثلية في جمله ومفرداته وكلماته، والمثلية في أسلوبه وفصاحته وبلاغته.

12- تركز آية التحدي سورة الإسراء بعد الروح الذي جعلت الروح من أمر الله ونفت علم البشـــر بحقيقته .. وهنا حكمة بذكر عجز الإنس والجن عن معارضة القرآن بعد آية الروح. أشار لها سيد قطب بقوله: "كما أن الروح من الأسرار التي أختص الله بها، فالقرآن من صنع الله الذي لا يملك الخلق محاكاته ولا يملك الإنس والجن – وهما يمثلان الخلق الظاهر الخفي – أن يأتوا بمثله، ولو تظاهروا وتعاونوا في هذه المحاولة".[47]

(والله الموفق والمعين)

المراجع والمصادر:

1. القرآن الكريم- سورة النمل 8-12.
2. القرآن الكريم- سورة ابراهيم : 9-12
3. القرآن الكريم- سورة هود: 53.
4. القرآن الكريم- سورة الشعراء: 153-155.
5. القرآن الكريم- سورة آل عمران: 49.
6. جلال الدين السيوطى، **الإتقان في علوم القرآن** دار الكتب العلمية، بيروت 1995م ج2، ص116.
7. القرآن الكريم- سورة يونس: 71.
8. القرآن الكريم- سورة يونس: 73.
9. القرآن الكريم- سورة هود: 50، 53، 57،61،64،65.
10. القرآن الكريم- سورة الإسراء: 90-93.
11. القرآن الكريم- سورة العنكبوت: 50-51
12. ابو بكر الباقلانى ، **إعجاز القرآن**، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1991م، ص31.
13. القرآن الكريم- سورة العنكبوت: 50-51
14. القرآن الكريم- سورة التوبة: 6
15. **رواه البخاري**، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته.
16. السيوطى. **الإتقان**، ج2 ص116-117.
17. القرآن الكريم- سورة آل عمران: 191.
18. القرآن الكريم- سورة الذاريات: 20-21.
19. القرآن الكريم- سورة فصلت: 53.
20. القرآن الكريم- سورة العلق: 1-5.
21. القرآن الكريم- سورة إبرايهم: 1 .
22. الإمام محمد أبو زهرة، **المعجزة الكبرى**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1970م، ص60.
23. القرآن الكريم- سورة الأنفال: 31.
24. السيوطى، **الإتقان**، ج2/ ص.253-254
25. ابن هشام، **السيرة النبوية**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج1.
26. القرآن الكريم- سورة المدثر: 18ـــ25.
27. القرآن الكريم- سورة فصلت: 1ـــــ5.

28. عبد الحليم محمود، **الرسول صلى الله عليه وسلم**، دار الكتب اللبنانية، 1974م، ص89. ولهذه القصة روايات أخرى ذكرها السيوطي عن ابن أبي شيبة والبيهقي وأبو نعيم عن جابر ذبن عبد الله.
29. **القرآن الكريم**- سورة الزمر: 23.
30. أي تركت دين أبيها.
31. من أول سورة الحديد إلى الآية رقم 8 (وذكر الآخرون أن تلك الآيات التي كانت تتضمنها الصحيفة هي أوائل سورة طه والله أعلم).
32. نور الدين على بن أحمد، **السيرة الحلبية**، طبعة مصطفى البابي الحلبي 1349هـ ج1، ص314.
33. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج1، ص 337، وابن كثير، البداية والنهاية، ج1، ص24.
34. **القرآن الكريم**- سورة فصلت: 26
35. **القرآن الكريم**- سورة الصافات: 36-37.
36. **القرآن الكريم**- سورة هود : 6
37. **القرآن الكريم**- سورة الفرقان: 5.
38. **القرآن الكريم**- سورة الأنفال: 31
39. عائشة بنت الشاطئ. **الإعجاز البياني للقرآن**، دار المعارف، مصر، 1987م، ص60
40. **المغني في أبواب التوحيد والعدل**، ج16، ص290.
41. **القرآن الكريم**- ثورة المدثر : 18ـــ25
42. **القرآن الكريم**- سورة الفرقان : 7-8.
43. صلاح عبد الفتاح الخالدي، **البيان في إعجاز القرآن**، دار العمار ، الأردن. ص63.
44. يوافق هذا الترتيب بما نقله السيوطي في **الإتقان**، ج1 ص10-11، عن ابن عباس.
45. وهي الآية رقم 86 و 87 من تلك السور.
46. الصـــعيدي عـــبد المتعال. **النظم الفني في القرن**، المطبعة النموذجية، بدون تاريخ، ص31-34 بتصرف وتلخيص.
47. البيان في إعجاز القرآن، ص 65-68